المعمودية في تعليم ثيودورُس أسقف المصّيصَة

لمحة سريعة عن حياة ثيودورس

وُلَد ثيودورس (اسمه يعني باليونانية : عطية الله) حوالى العام ٣٥٠ في انطاكية وتابع دراسته مع يوحنا فم الذهب في مدرسة المعلّم الوثني المشهور : ليبانيوس ؛ سيم كاهناً عام ٣٨٣ فوصلت شهرته الى جوار مدينة انطاكية وامتدت الى اماكن بعيدة بسبب مواعظه وتعاليمه . دافع عن ايمان الكنيسة ضد الهراطقة وأُنتخبَ أسقفاً على المصّيصة [١] عام ٣٩٢ . أثناء اسقفيته ، ترك العديد من ابناء المصّيصة ديانة الوثنية وارتدوا الى المسيحية ؛ حافظ على وديعة الإيمان حتى وفاته عام ٤٢٨ وقد رقد بسلام مع الكنيسة ونال لقب : " مفسّر الكتب الإلهية " [٢] .

ترك ثيودورس كتباً عديدة في شرح الكتب المقدسة والأسرار والليتورجيا وفي ردّه على الهراطقة ؛ نجد اسماء الكتب التي ألّفها في لائحتين دُوِّنتا في القرن الثالث عشر والرابع عشر وهما لائحة عبد يشوع الصوباوي [٣] والتاريخ السعردي [٤] . هذه الشهرة الواسعة أثارت غيظ خصومه الذين يدافعون عن المونوفيزية ، فوجّهوا اليه التهم بعد وفاته معتبرين ان نسطور الذي عُيِّن بطريركاً على كرسي القسطنطينية سنة ٤٢٨ هو من تلاميذه .

---

١ . تقع المصّيصة في كيليكية من اعمال تركيا وهي قريبة من طرسوس ؛ كان في هذه المدينة صنم يُدعَى : مفسوس ، لذلك سُمِّيَت المدينة مفسوسطيا على اسم الصنم .

٢ . للحصول على المزيد من المعلومات عن ثيودورس اسقف المصّيصة راجع :

بولس الفغالي ، ثيودورس اسقف المصّيصة ومفسِّر الكتب الإلهية ، (التراث السرياني ٣) ، دار المشرق بيروت ، ١٩٩٣ . نعمة الله الخوري : " ثيودورس اسقف المصيصة " في المنارة السنة ٤٣، عدد ٢ – ٣ ، ٢٠٠٢ ، ص ٣٨٣ – ٣٩٦ .

E. AMMAN , DTC 15 .1 : 235 – 279 . R. DEVRESSE , Essai sur Théodore de Mopsueste (StTest 141; 1948) . R. A. GREER , Theodore of Mopsuestia (London 1961).

3 – Le texte est publié dans : J.-S. ASSEMANI, Bibliotheca orientalis , t. III , p. 30 – 35 .

4 - Publiée en arabe avec traduction française par Mgr DIB, dans P . O . , t. V , p. 289 – 291 .

لا نملك معلومات وافية عن علاقة أكيدة بين ثيودورس ونسطور كما ان التقارب المزعوم بين تعليمهما هو من نسيج الخصوم . وبالفعل لا يدين مجمع افسس (٤٣١) ثودورس بل يكتفي بإدانة نسطور ، كما ان الآباء الذين اجتمعوا في مجمع خلقيدونية (٤٥١) استمعوا باهتمام الى رسالة هيبا الرهاوي التي تتضمّن مديحاً لثيودورس المصّيصي . تقول الرسالة التي تُليت امام آباء المجمع : كان ثيودورس بطل الحقيقة وملفان الكنيسة الذي ، ليس فقط خلال حياته أهان الهراطقة بحقيقة ايمانه ، بل ايضاً ترك لأبناء الكنيسة ميراث كتاباته .

حرق خصوم ثيودورس ، كتبه بعد وفاته وشوّهوا تعاليمه وكانوا يستشهدون بمقاطع منسوبة اليه ودامت الحال كذلك حتى استطاعوا النيل منه بعد وصول المونوفيزية الى القسطنطينية في اواسط القرن السادس . لذلك حرم مجمع القسطنطينية الثاني (٥٥٣) ثيودورس المصّيصي مع رفيقيه ثيودوريتس القورشي وهيبا الرهاوي وجعل شخص ثيودورس بين الهالكين بعد وفاته بحوالى ١٢٥ سنة .

تعاليم ثيودورس حول المعمودية

اكتشف العالِم السرياني افرام الأول برصوم [٥] بطريرك السريان الأرثوذكس كتاب ثيودورس : " العظات التعليمية " ، ويتضمّن هذا الكتاب جزئين : وردت في الجزء الأول شروح في قانون الايمان في حين انّ الجزء الثاني يعرض شروحاً في اسرار الكنيسة . نشر الأب ريمون تونو [٦] هذا الكتاب في الفرنسية ، وظهرت حديثاً ترجمة [٧] أخرى لهذا الكتاب نقلها الخوري بولس الفغالي [٨] الى العربية .

كتب ثيودورس ست عظات في " الشروح في اسرار الكنيسة " . العظة الأولى حول شرح الأبانا او الصلاة الربية ؛ العظة الثانية حول المعمودية وتسجيل الأسماء ؛ العظة الثالثة حول إنكار الشيطان والمسح بالزيت ؛ العظة الرابعة حول المعمودية وكتاب الطقوس ؛ العظة الخامسة حول قداس الموعوظين ؛ العظة السادسة حول النافور او قداس المؤمنين .

---

٥ – دامت بطريركيته منذ سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٥٧ .

6 – R. TONNEAU , Les Homélies Catéchétiques de Théodore de Mopsueste , Citta del Vaticano , 1949 . Studi e Testi , 145 .

7 – Théodore de Mopsueste, Homélies catéchétiques, Paris, 1996. Coll. “ Les Pères dans la foi”. N^{o} 62 – 63 .

٨ – ثيودورس أسقف المصيصة ، العظات التعليمية . نقلها الى العربية الخوري بولس الفغالي ، دار المشرق ، بيروت ١٩٩٨ .

كذلك نجد بعض تعاليم ثيودورس حول سر المعمودية في كتابه : " شرح إنجيل يوحنا " الذي اكتشفه المطران خيّاط في دير القديس جرجس ، شمالي الموصل في العام ١٨٦٨ وهو مدوّن في اللغة السريانية وقد نقله الأب فوستي [٩] الى اللاتينية .

سنهتم بدراسة العظات الثانية والثالثة والرابعة الواردة في " الشروح في اسرار الكنيسة " التي تتطرّق الى المعمودية مع العلم انّ هذه العظات الثلاث تحمل الأرقام ١٢ و ١٣ و١٤ في كتاب ثيودورس : " العظات التعليمية " . في القسم الأول من دراستنا ، سنعرض كيفية منح سر المعمودية في ايام ثيودورس ، ثمّ سنعالج في القسم الثاني تعليم ثيودورس حول المعمودية .

القسم الأول : كيفية منح سر المعمودية في ايام ثيودورس

قبل ان ينال طالب العماد موهبة المعمودية المقدسة ، يُطلب اليه الاستعداد لفهم المعاني الخلاصية التي يتضمّنها هذا السر ؛ فيجب ان يتعرّف ، قبل كل شيء ، على المسيح القائم من الموت الذي سيعتمد باسمه ، وعليه ان يتلقّن كيفية سلوكه في حياته الجديدة بعد ان ينال سر المعمودية . هذه الفترة التحضيرية تتضمّن المراحل التالية :

أولاً : تسجيل اسم طالب العماد في سجلّ الكنيسة [١٠]

يُعلن طالب العماد عن رغبته في الانضمام الى الكنيسة التي تُعتَبر مدينة السماء الجديدة والعظيمة ؛ يستقبله الموكّل بالتسجيل ويسأله عن المؤهّلات التي تخوّله الدخول الى هذه المدينة .

١ . دور العرّاب

انّ العراب هو واحد من اهل هذه المدينة ؛ يرافق العراب طالب العماد ويعرّف عنه ويشهد انه يستطيع الانضمام الى الكنيسة لأنه تعرّف على طرق الحياة في المدينة الجديدة وتعلّم المعاني الخلاصية للمعمودية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموت المسيح وقيامته . سيظلّ العرّاب مرافقاً طالب العماد ، حتى بعد دخوله الى المدينة ، وسيرشده الى طرق عيشها وكيفية السلوك بمقتضى الحياة الجديدة الناجمة عن سر المعمودية .

---

9 – J.M. VOSTE, Theodori Mopsuesteni commentaries in evangelium Johannis apostolic , CSCO , Louvain , 1940 .

١٠ – يعالج ثيودورس تسجيل اسم طالب العماد في العظة الثانية حول الأسرار وهي العظة الثانية عشرة في كتاب العظات التعليمية .

٢ . الصراع مع العدو

يظهر هنا الشيطان فيدّعي سلطته على طالب العماد الذي كان يعيش قبلاً تحت وصايته لذلك لا يحق لهذا الطالب الدخول الى مدينة السماء ؛ منذ معصية آدم ، استولى الشيطان على البشرية وجرّ عليها الموت عقاباً وتنامت الخطيئة وكثرت الشرور بسبب تسلّط الشيطان على هذه البشرية التي تئنّ تحت نير عبوديته . هذا يعني ان سيطرة الشيطان على طالب العماد هي واقع أكيد وبالتالي لا يحقّ له التخلّص من ارتباطه بسلطة الشيطان .

٣ . المحاكمة

ان رغبة طالب العماد بالدخول الى مدينة السماء المقدسة اصطدمت بمعارضة الشيطان القوية ؛ لذلك اضحى من الضروري اللجوء الى المحكمة لينظر القاضي في هذه القضية . يمثل طالب العماد الى المحكمة ، مع العلم ان الله هو القاضي أثناء المحاكمة . يعلن طالب العماد صفته ويعبّر عن انفصاله عن الشيطان وعن رغبته في ان يكون مرتبطاً بالله الذي خلقنا منذ البدء على صورته ومثاله .

يستمع الله الى الدعوى ويحكم على الشيطان المعتدي الذي اوقع البشرية في الخطيئة والموت ، ويُعلن انه أقام ابنه الوحيد يسوع المسيح من بين الأموات واصعده الى السماء وهو غير قابل للموت او للفساد . افتدى القائم من الموت البشرية الخاطئة ومنحها التنعّم بالخيور السماوية ، لذلك لا يملك الشيطان سلطة على طالب العماد ، فالمسيح المُمجّد يمنح الحياة الأبدية للذين يطلبونها باجتهاد .

٤ . دور التقسيمات

أثناء هذه المحاكمة يكون طالب العماد واقفاً على نسيج من شعر ويلعب المقسّم دور المحامي والمدافع عن حقوق المدّعى عليه (طالب العماد) الذي يئنّ تحت نير العبودية والخطيئة والموت . في هذه الأثناء يبقى طالب العماد صامتاً لأنه لا يحقّ له الكلام ، فينوب عنه المقسّم الذي يلعب دور المحامي ويتشكّى من عبودية قاسية يعاني منها طالب العماد المتّهم من الشيطان ؛ يتذمّر المقسّم ايضاً من ظلم الشيطان الذي يكبّل طالب العماد هذا منذ فترة طويلة . ان وقوف طالب العماد على نسيج الشعر يحمل معنيين ، اوّلهما لينخزه الشعر في رجليه ويزعجه ، وثانيهما ليذكّره الألمُ بعبوديته القديمة . يتأسّف طالب العماد ويتوب عن خطاياه السابقة ويتوق الى الخيرات العتيدة الموعود بها .

٥ . الحكم

ان موقف طالب العماد المتواضع التائب يحرّك شفقة القاضي – الله ورحمته ؛ يترك هذا الطالب ثيابه القديمة المرتبطة بالخطيئة ، وهذا دليل على تحرّره من تعذيب الشيطان ، وها هو الآن يستعدّ كي يلبس ثوباً جديداً . يُصدر القاضي حكمه فيُعلن ان لطالب العماد حقاً بالدخول الى المدينة المقدسة ؛ يستند الله في حكمه الى موت المسيح الذبائحي والى قيامته ، فقد ابطل الابن الوحيد الموت بموته ومنح الحياة والقيامة للمختارين .

هكذا تنتهي المرحلة التحضيرية التي تهيّيء طالب العماد لقبول الخيرات والنعم الممنوحة بواسطة المعمودية ؛ هنا يبدأ دور الكنيسة المُمثّلة بالكاهن الذي سيمنحه السر المقدّس .

ثانياً : إنكار الشيطان والاعتراف بالثالوث [١١]

يعود ثيودورس الى كتاب النصوص فيأخذ منه المقطع التالي[١٢] : " يقول المعمّد : أكفر بالشيطان وبكلّ ملائكته وبكل اعماله وبكل خدمته وبكل اباطيله وكل ضلاله العالمي . وأتعهّد وأؤمن واعتمد باسم الآب والابن والروح القدس " . يبدأ ثيودورس هنا بشرح المعاني التي يتضمّنها هذا الإعلان الإيماني الوارد في كتاب النصوص .

١ . الكفر بالشيطان وبملائكته

يركع طالب العماد على ركبته ويبقى جسمه منتصباً ويقول علناً انه يكفر بالشيطان الذي كان عائشاً في الماضي تحت سلطته ؛ منح الله طالب العماد نعمة التحرّر من قبضة الشيطان فمن الضروري ان يكفر بهذا الأخير الآن وان يبتعد عنه وان يُلغي الشركة القديمة القائمة بينهما . لا يحارب الشيطان البشرية وحده ، فهو غير منظور ، ولكنه يستعين بملائكته وهم اشخاص يخضعون له وهم أدوات يسخّرهم لإذلال البشرية ولإبعادها عن طريق الصواب ؛ انهم يخدمون ارادة الشيطان ويُفسدون البشر ويُضلّونهم .

١١ – يعرض ثيودورس تعليمه حول انكار الشيطان والمسح بالزيت والايمان بالله في العظة الثالثة حول الأسرار وهي العظة الثالثة عشرة في العظات التعليمية .

١٢ – بولس الفغالي ، العظات التعليمية ، ص ٢٠١ .

يعدّد ثيودورس هؤلاء الملائكة ويعتبر ان جنود الشيطان هم ماني ومرقيون وولنطينوس وبولس الشميشاطي واريوس واونوميوس وغيرهم . هؤلاء جميعاً يعلّمون تعاليماً منحرفة ويُبعدون المؤمنين عن الايمان القويم ، كما ان اباطيل الشيطان هي عمل الوثنيين الذين يُضلّون الآخرين بشرورهم . هكذا تحرّر طالب العماد من سلطة المعتدي ونجا من العبودية ونال الخيرات الموعودة .

٢ . الايمان بالله

الكفر بالشيطان والابتعاد عنه يسمح لنا بالتقرّب من الله وبالمجاهرة بالإيمان به . هو آب وابن وروح قدس ، وهذه هي الطبيعة الإلهية . ان هذا الجوهر الإلهي موجود منذ الأزل وهو علّة الوجود . يقطع طالب العماد امام الله عهداً ويعد بان يؤمن به وان يعتمد باسمه فيقبل الخيرات الممنوحة بواسطة هذا السر .

٣ . المسح بالزيت

يُعلن طالب العماد عن ايمانه فيتقدّم منه الكاهن متوشّحاً لباساً من الكتان اللامع ويمسحه على جبينه بزيت المسحة ويقول : " يوسم فلان باسم الآب والابن والروح القدس " . هذه العلامة الموسومة على القسم الأعلى من الوجه تعني انه أضحى معروفاً بشكل علني وواضح امام اعين كل الناس ولن تستطيع الشياطين ان تقترب منه بعد الآن .

حيتئذٍ يطلب الكاهن من طالب العماد الوقوف بعد ان كان راكعاً ليبيّن انه ترك حياة السقطة القديمة ولن تكون له بعد الآن شراكة مع امور الدنيا بل هو من اهل السماء . يبسط الكاهن على رأس طالب العماد البطرشيل من الكتان وهذه علامة الحرية ، ثمّ يُنهضه ويقيمه لينتصب .

ثالثاً : طقوس المعمودية [١٣]

بعد انتهاء المرحلة التحضيرية ، يستعد الآن طالب العماد للمرحلة الأخيرة حيث يتم التغطيس بالماء ودعاء الثالوث الأقدس .

---

١٣ – يعرض ثيودورس كيفية اعتماد المؤمن في العظة الرابعة بين الأسرار وهي العظة الرابعة عشرة بين العظات التعليمية .

يقول كتاب النصوص [١٤] حول كيفية منح سر المعمودية : " تتقدّم إذاً الى المعمودية المقدسة وتخلع اولاً كل ملابسك وتُمسح كلّك كما يجب بزيت المسحة . ويبدأ الكاهن فيقول : يُمسح باسم الآب والابن والروح القدس . ثمّ تنزل في الماء الذي قدّسته بركة الكاهن . ويقف الكاهن ويقرّب يده ويضعها على رأسك ويقول : يُعمَّد (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس . ويرتدي الحلّة ذاتها التي لبسها سابقاً .

ويضع الكاهن يده على رأسك ويقول : باسم الآب . وإذ يقول هذه الكلمة يغطسك في الماء . فلو سُمح لك ان تتكلّم في هذه اللحظة لقلت : آمين . إذاً انت تغطس . وانت ترفع رأسك بينما يقول الكاهن ايضاً : والابن . وبالطريقة عينها يؤهّبك بيده لتغطس . وانت ترفع رأسك . ولكنّ الكاهن يقول من جديد : والروح القدس . وبالطريقة عينها يدفعك ويغطّسك . وحين تصعد من الماء ترتدي لباساً لمّاعاً . ويتقدّم الكاهن ويمسحك على جبينك ويقول : يُوسم (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس . "

القسم الثاني : تعليم ثيودورس حول سر المعمودية

استوحى ثيودورس تعاليمه حول سر المعمودية من كتب العهد الجديد واستند الى كتاب الطقوص الذي يشرح كيفية منح سر العماد . يعتبر ثيودورس ان المعمودية هي ولادة جديدة ترمز الى الموت والقيامة مع يسوع وهي تجمع المؤمنين وتجعلهم جميعاً يشكّلون جسداً واحداً رأسه المسيح ؛ يلعب الروح القدس دوراً مهماً في منح المواهب والخيرات الموعودة للمؤمنين حين يعتمدون . سنحاول ان نشرح هذه التعاليم التي تُشيد بعَظَمة سر المعمودية .

أولاً : مياه العماد حشى ولادة جديدة

ان مياه حوض المعمودية ليست مياهاً عادية بل هي مياه الولادة الثانية وهي لا تقدر ان تصير هكذا إلاّ بحلول الروح القدس . يتلو الكاهن قبل العماد كلمات محدّدة تفرضها رتبة خدمته الكهنوتية ويطلب الى الله كي تأتي نعمة الروح القدس على المياه لتجعلها قادرة على تحقيق الولادة الجديدة وتصنع منها حشى ولادة اسرارية .

---

١٤ – بولس الفغالي ، العظات التعليمية ، ص ٢١٥ .

يقول ثيودورس في هذا الخصوص[١٥] : " كما انّ حشى الأم يقبل في الولادة الجسدية زرعاً ، ولكنّ يد الله تكوّنه بحسب قرار اتّخذ منذ البدء ، كذلك تصبح المياه ايضاً بالمعمودية حشى لمَن يولَد ، إلاّ انّ نعمة الروح القدس تكوّن الذي تعمّد لولادة جديدة وتجعله انساناً آخر .

فكما انه يسقط في حشى الأم زرع لا حياة فيه ولا نفس ولا احساس ولكنّه ، بعد ان تُكوّنه يد الله ، يخرج انساناً حيّاً له نفس وإحساس وقد أخذ طبيعة تقدر ان تعمل كلّ عمل بشري ، هكذا هنا ايضاً : فالذي يعمّد يسقط في الماء كما في حشى الأم كزرع لا علامة فيه لطبيعة خالدة . ولكن عندما يعمّد وينال النعمة الإلهية والروحية يصبح بكلّيته انساناً آخر . يتكوّن من طبيعة لا مائتة كانت مائتة ومن طبيعة لا فاسدة كانت فاسدة ومن طبيعة لا متبدّلة كانت متبدّلة . صارت كلّها طبيعة أخرى حسب سلطان الذي يكوّنها " .

ثانياً : المعمودية موت وقيامة مع المسيح

ان المعمودية هي علامة لموت المسيح وقيامته ؛ يولَد المُعمّد من جديد لأنه يموت اولاً في الماء حين يدخل فيها لأنّ هذا النزول الى الماء ساعة العماد يرمز الى الموت مع المسيح الذي وُضع في القبر . بعد ذلك يخرج المعمّد من الماء ويرمز هذا الصعود من الماء الى القيامة مع المسيح القائم من الموت التي تتحقّق بقوّة الله .

بعبارة أخرى يغطس طالب العماد في الماء كما يُوضَع الميت في القبر ثمّ يخرج من الماء على ثلاث دفعات : المرة الأولى حين يدعو الكاهن اللهَ الآب ، والمرة الثانية حين يدعو اللهَ الابن ، والمرة الثالثة

حين يدعو اللهَ الروح . هذا الخروج من الماء مع دعاء اسم الثالوث الأقدس هو بمثابة قيامة يحصل عليها طالب العماد .

حين نقترب الى العماد ونحن نملك هذا الايمان ، نشارك منذ الآن في موت المسيح ونحن نتوق الى الحصول ، بواسطة مفاعيل المعمودية ، على الخيرات الموعود بها .

---

١٥ – بولس الفغالي ، العظات التعليمية ، ص ٢٢٣ .

ثالثاً : آدم المائت والمسيح القائم من الموت

يقارن ثيودورس بين آدم الانسان الأول الذي خُلق في هذه الحياة وبين المسيح الذي أسّس الحياة الجديدة ؛ وقع آدم في الخطيئة ودفع البشرية من بعده الى الخطيئة والموت ؛ ولكنّ المسيح استطاع ان يمنح الحياة الجديدة للمؤمنين به ، حين اعطاهم المعمودية التي تُحقّق مثال موته وقيامته . يقول بولس الرسول : " حين تعمّدنا لنتّحد بالمسيح يسوع ، تعمّدنا لنموت معه ، فدُفِنّا معه بالمعمودية وشاركناه في موته ، حتى كما أقامه الآب بقدرته المجيدة من بين الأموات ، نسلك نحن ايضاً في حياة جديدة " (روم ٦ : ٣ – ٤) .

يقول ثيودورس [١٦] : " أن آدم أساس حالتنا القائمة ، أمّا حياتنا المقبلة ، فالمسيح ربنا اساسها . فكما كان آدم أول انسان مائت واصبح الجميع بعده مائتين به ، كذلك المسيح هو بكر القائمين من الموت ، وقد أعطى بذور القيامة للآتين بعده . تأتي الحياة المنظورة بالولادة الجسدية ، فنحن كلنا فاسدون . أمّا بالنظر الى الحياة المُقبلة ، فسنتحوّل فيها بقوّة الروح القدس ، ونقوم بغير فساد . ولأن ذلك الأمر لا يتحقّق إلاّ آنئذٍ ، فقد اراد المسيح ربنا ان ينقلنا الى هناك بالرمز ، فاعطانا المعمودية والحياة الجديدة فيه .

والولادة الروحية هذه ، انما هي الصورة الحاضرة للقيامة والتجديد اللذين يتحقّقان فينا كاملين يوم نعبر الى تلك الحياة . فدعيت المعمودية ولادة ثانية . وقد قال بولس الرسول : " أتجهلون أنّ كلّ من

اصطبغ بيسوع المسيح اصطبغ بموته . بالموت دُفنّا معه ، وكما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب ، كذلك تكون حالنا في جدّة الحياة . فإذا كنّا قد غُرسنا معه على شبه موته فعلى شبه قيامته نكون " (روم ٦ : ٣ – ٥) . "

كان آدم مثالاً للمسيح ، ففي حين وُلدت البشرية من آدم وهي تحمل في طبيعتها الفساد والموت ، منح القائم من الموت هذه البشرية الخيور الإلهية . وبالفعل خُلق آدم وبعد ذلك أخذ الله جزءاً منه وكوّن المرأة فجعلها متّحدة به بحب كامل وبشركة الزواج كما هو مكتوب : " يكونان جسداً واحداً " (تك ٢ : ٢٤) وانطلاقاً من هنا نال الجنس البشري بدايته .

---

١٦ – كتب ثيودورس هذا المقطع حول المعمودية في شرحه شهادة المعمدان حول يسوع الواردة في إنجيل يوحنا (يو ٣ : ٢٩) ؛ ترجم الخوري بولس الفغالي هذا المقطع في كتابه : ثيودورس اسقف المصيصة ومفسّر الكتب الإلهية ، التراث السرياني ٣ ، دار الممشرق ١٩٩٣ ، ص ٥٢ – ٥٣ .

هكذا ايضاً ، وبنفس الطريقة ، وُلد المسيح في ولادة روحية ساعة العماد فكان الأول على مثال آدم ؛ في نهر الأردن ، شاء الرب يسوع ان يتمّم شخصياً مثال القيامة لذلك حلّ عليه الروح القدس ، وبالفعل شهد يوحنا قائلاً : " رأيت الروح ينزل ويستقرّ عليه " . غير ان يسوع وُلد ولادة جديدة فعلياً حين قام من بين الأموات واضحى في المجد الأبدي . إذاً حقّق الرب يسوع صورة آدم في المثال وفي الفعل : في المثال حين اعتمد ، وفي الفعل حين قام من الموت ، وبواسطة المسيح المثال والفعل اكتملا .

رابعاً : اتحاد المؤمنين مع المسيح بواسطة المعمودية

يعرض ثيودورس تعليمه حول اتحاد المؤمنين مع المسيح بواسطة المعمودية في تفسيره شهادة المعمدان حول يسوع الواردة في إنجيل يوحنا (يو ٣ : ٢٢ – ٣٠) . يقول ثيودورس : " يتضامن جميع الناس فيما بينهم في هذه الحياة فيشكّلون جميعاً جسداً واحداً ؛ حتى وإن تمايزوا عن بعضهم باختلاف الوجوه ولكنهم متحدون طبيعياً فيما بينهم ، وكل واحد منهم هو احد اعضاء هذا الجسد . هذا الجسد الجماعي يمتاز بقابليته للموت والفساد ، فجميع الناس هم مسجونون تحت هذا القضاء .

غير ان ربنا ، بغزارة نعمته ، شاء ان يخلقنا جميعاً من جديد ويوصلنا الى خليقة افضل في الحياة العتيدة التي سنقوم اليها معه بعد موتنا . في ذلك الوقت لا ننال موهبة الوجود والحياة وحسب ، بل نمكث ايضاً غير فاسدين وحين ننال هذا التغيير نستمرّ في وجودنا من خلال عدم فساد جبلة جسدنا .

لذلك أخذ الله جزءاً يسيراً من موهبة الروح واعطى جميع الناس نعمة المشاركة فيها وجعلهم جميعاً متحدين بالروح الذي به وُلدوا من جديد واصبحوا يملكون نحو الله وحدة طبيعية على مثال الولادة . ان المعمودية تجعل جميع المؤمنين متحدين بالمسيح ربنا فيقبلون القرابة الى الله الكلمة .

غير ان هذه الوحدة ليست شبيهة بوحدة الزواج بل هي وحدة ناجمة عن ايمان وحب كامل . ولا عجب ان الكنيسة أُخذت من ربنا بمنزلة المرأة إمّا لأنها قَبلت شَبَه الاتصال به بواسطة جزء يسير وإمّا بسبب اتحادها معه بالحب الذي تُظهره له بواسطة الايمان .

لذلك حين حرّض بولس الرسول الرجال كي يحافظوا على حب نسائهم استعمل برهان المسيح في تعليمه ؛ فبعد ان قال : " يكونان كلاهما جسداً واحداً " اضاف : " هذا السر هو عظيم ، اعني ما يتعلّق بالمسيح وكنيسته " (اف ٥ : ٣٢) . يريد الرسول ان يبيّن ان ذاك صُنع هناك جسدياً ، لأن البيعة المؤمنة اتحدت بالمسيح المتجسّد بواسطة الولادة الجديدة وبواسطته نالت القرابة الى الله الكلمة . "

خامساً : دور الروح القدس في المعمودية

الروح القدس هو الفاعل الأساسي في سر المعمودية ، فالولادة الجديدة تتمّ بالماء والروح ؛ الماء يشير الى شكل الولادة في حين ان الروح يبيّن مصدر الولادة الجديدة . تلعب المياه دور العلامة والسر في المعمودية ولكنّ الولادة الحقيقية تحدث بفعل الروح . ان الذي يُولد من الجسد يكون في طبعه مائتاً وقابلاً للفساد ، غير ان المولود من الروح يجب ان يصبح لا مائتاً وغير قابل للفساد ، وهذا ما قاله يسوع لنيقوديموس : " المولود من الجسد هو جسد والمولود من الروح هو روح " (يو ٣ : ٦) .

١ . الولادة بالماء والولادة بالروح

حين شرح ثيودورس حوار يسوع مع نيقوديموس ، عرض بشكل موسّع تعليمه حول دور الروح في الولادة الجديدة التي لم يفهم معلم اسرائيل ابعادها ورموزها . وبالفعل حين تساءل نيقوديموس كيف يمكن ان

يدخل رجل مسنّ أحشاء امه ثانية ويُولد (يو ٣ : ٤) ، أكّد له يسوع ان هذه الولادة هي ممكنة بفعل الماء والروح .

ان دور الماء لا يوازي دور الروح أثناء المعمودية ؛ فالمياه تُستعمل بمثابة علامة امام عيوننا ؛ يدخل فيها المعمّد ساعة العماد ، في حين ان الروح يُظهر قوته بواسطة الماء . وبالفعل حين يستعد طالب العماد لينال موهبة السر ، لا يذكر الكاهن الماء بل يُشير فقط الى الروح بعد ذكر الآب والابن بقوله : " يُعمّد فلان باسم الآب والابن والروح القدس " . ان الروح هو الذي يُدعى روح التبني وليس الماء ، لأنّ قدرة الروح تلدنا من جديد في حين ان المياه هي آية حسية تدلنا على عمل الروح الخفي ساعة المعمودية .

٢ – عطية الروح ساعة العماد وعطية الروح بعد القيامة

ان طالب العماد الذي حصل على الهبات الممنوحة بواسطة هذا السر ، يمتلك بعد خروجه من حوض المعمودية عدم الموت وعدم الفساد والخيرات الأبدية ، ولكنه لا يستطيع ان يجعلها تبرز في حياته اليومية لأن قوة الله حدّدت الزمن حين يمكنه الاستفادة منها . حين يقوم المعمد الى حياة جديدة ، بعد انتقاله من هذه الحياة الى الحياة العتيدة ، سيمارس بشكل كامل اللافساد وعدم الموت وعدم الألم .

يعطي ثيودورس مثلاً حول هذا الأمر : ان الطفل المولود حديثاً يتمتّع بامكانية الكلام والسير والعمل غير انه لا يستطيع استعمالها في فترة الرضاعة ؛ ولكن حين ينمو ويكبر ، تساعده قوة الله على الاستعانة بهذه الإمكانيات .

ان الولادة الجديدة بالمعمودية التي تتحقّق هنا في هذه الحياة تعطينا جزءاً صغيراً من نعمة القيامة وذلك بمثابة عربون مع العلم ان الروح هو الفاعل الرئيس ساعة العماد . ولكن في الآخرة ، بعد الموت ، ننال نعمة القيامة بكاملها حين نقوم حقيقة فنشترك مع المسيح بعدم الفساد .

يستند ثيودورس في تعليمه الى قول بولس الرسول الذي يؤكّد اننا ننال النعمة هنا بمثابة باكورة بانتظار ان ننالها كاملة حين نحصل على التنعّم بالقيامة فيقول : " نحن الذين لنا باكورة الروح نئن في اعماق نفوسنا منتظرين من الله التبني وافتداء أجسادنا " (روم ٨ : ٢٣) . كذلك يؤكّد كتاب الأعمال ان الرسل ، يوم العنصرة ، نالوا جزءاً يسيراً من موهبة الروح القدس ومنحوا المؤمنين هذه الموهبة بالتسلسل الذي يتحقّق بواسطة الكهنة على مدى الأجيال اللاحقة .

خاتمة

يتعرّى المعمّد ساعة العماد من ثيابه القديمة وهذا برهان انه مائت ، بعد ذلك يُمسح بالزيت المقدّس وهذه علامة اللافساد الذي يُعتبر من اهمّ خيور المعمودية . بعد المعمودية والصعود من الماء ، يرتدي المُعمَّد لباساً لمّاعاً يرمز الى العالم المُشرق الذي دخل فيه ؛ انّ سيرة المُعَمَّد وسلوكه سيُضيئان ويُشعّان أمام الآخرين لأنه اضحى انساناً جديداً . بعد دعاء الكاهن الى الله لإرسال الروح القدس ، تصبح المياه حشىً لولادة جديدة وتُكوِّن نعمة الروح المُعمَّد من جديد فيُولد ثانية بطبيعة بشرية جديدة وسامية .

ان عطية الروح ساعة العماد تمنح المؤمنين الاتحاد الطبيعي نحو المسيح فيصبحون جميعاً انساناً واحداً ، فكل الذين يُولدون في المسيح بهذه الطريقة يُدعَون " جسد المسيح " وكلّ واحد منهم هو أحد اعضائه ورأس الجميع هو المسيح . اننا ننال نحو المسيح الوحدة الطبيعية بقوة الروح القدس وهذا ما يؤكّده بولس الرسول بقوله : " نحن كلّنا تعمّدنا بروح واحد لنكون جسداً واحداً وارتوينا من روح واحد " (١ كور ١٢ : ١٣) .

اوصى الرب تلاميذه بان يُعمِّدوا باسم الآب والابن والروح القدس (مت ٢٨ : ١٩) ؛ ان طبيعة الثالوث الأقدس هي موجودة منذ الأزل وهو مصدر كلّ شيء وقد وُجدنا به منذ الأزل ؛ حين ننال سر العماد نُولد ونُجبل من جديد فلا يمكن ان يكون مصدر جبلتنا الثانية المُمثّلة بالمعمودية مختلفاً عن مصدر جبلتنا الأولى المُمَثَّلة بمجيء آدم الى الوجود . ان الكاهن هو خادم لسر المعمودية ولكنه يكشف ويُعلن ان الثالوث الأقدس هو المصدر الحقيقي للخيرات الممنوحة بواسطة المعمودية .

"المعمودية في تعليم تيودوروس أسقف المصيصة" ، المجلة الكهنوتية ٣ ،(لبنان ٢٠٠٣) ص ٢٨٧ – ٢٩٩ .